

الباب السابع

أغنياء وفقراء... من التاريخ!!

فصل أول : فقراء من التاريخ...

فصل ثانٍ : أغنياء من التاريخ...

obeikandi.com

ليس من قبيل المصادفة أن يُرسل الله تعالى الأنبياء والمرسلين ، إنما كان باستطاعته أن يُرسل الكتب السماوية ، ويطلب من الناس اتباع ما جاء فيها ، لكن من الحكم في ذلك أن المبادئ والقيم والنظريات والأفكار ، لا تعيش إلا بالمثل الحي ، من هنا وُصف النبي ﷺ بأنه كان قرآنًا يمشي على الأرض ، أي أنه ترجم القرآن من النظري إلى الحياة العملية . .

فإن تحدّث - مثلاً - عن الصدّق ، جاءت ترجمة ذلك في شخص سيدنا محمد ﷺ فكان الصادق الأمين .

ولذلك قالوا : إن النبي ﷺ الواحد بمثله الخلقي الحي ، وجهاده الدؤوب ، أهدى للبشرية من آلاف الكتاب ، الذين ملؤوا بالفضائل والحكم ، بطون المجلدات . . . من هذا المنطلق ونحن نتحدث عن الفقراء والأغنياء في ميزان الشريعة ، كان لا بد لنا من ترجمان حول هذا الحديث ، لا بد لنا من قدوة وشخصية تتمثل هذه الصفات ، لذلك لا بد أن نبحث عن أشخاص من التاريخ كانوا فقراء ، ونبحث عن أشخاص كانوا أغنياء ، ثم نسلط الأضواء الكاشفة عن رأي الإسلام في كل منهما . . . ونضع غنى أولئك في ميزان الإسلام الذي تحدثنا عنه . . ونضع فقر أولئك الفقراء في هذا الميزان .

لنضع التقرير النهائي - كما يفعل المحاسبون بعد أن يقدموا قوائم الحسابات لشركة ما - لنرى أيهما يفضّل الإسلام : الأغنياء أم الفقراء ؟!

والحديث في ذلك يطول ويطول ، لكن سأكتفي بنماذج فقط من التاريخ القديم ، وأركز الحديث على الفترة الإسلامية لألتقط منها بعض النماذج من فقراء ، ومن أغنياء .

الفصل الأول

فقراء من التاريخ!!

تحدثنا في الفصول السابقة أن ميزان الإسلام لا يكره الفقراء ، وإنما يكره الفقر لأنه قرين الكفر ، وتحدثنا أنه يطالب الفقراء بعددٍ من الأخلاقيات والآداب وتحدثنا أن قيمة الإنسان لا تأتي من قدر ما يملك من متاع الدنيا إنما يأتي من الخدمات التي يقدمها الإنسان للآخرين ، وبقدر ما يصبغ الإنسان نفسه بتعاليم هذا الدين الحنيف .

لكن مع ذلك أحببت أن أنقل - وباختصار - ترجمة بعض النماذج لأشخاص كانوا فقراء ، ومع ذلك كانوا قمماً في الميزان الإسلامي ، من ذلك :

● الصحابي الجليل عُمر بن سعد الأنصاري :

نشأ يتيماً فقيراً منذ نعومة أظفاره ، وشبَّ على ذلك ورأى بعينه - في غزوة تبوك - عثمان بن عفان يأتي بجرابٍ فيه ألف دينار ذهباً ويقدمه للنبي صلوات الله عليه .

ورأى أيضاً عبد الرحمن بن عوف وهو يحمل على عاتقه مائتي أوقية من الذهب ويلقيها بين يدي الحبيب محمد ﷺ .

فهل أثر ذلك سلباً على موقفه ؟ هل قال : أنا لا أملك دراهم ولا ذهباً إذا أنا مظلوم ؟ هل تراجع وتخاذل ؟!

أبدأ : بل إنه وقف - بفقره - على مرتبة رفيعة ، وسما سموّاً قلّ مثيله ، وكانت حياته كلها حافلة بالرفعة والإباء ، من ذلك مثلاً :

أن مدينة حمص كان أهلها شديدي التذمر من ولاتهم ، لكن الفاروق هذه المرة اختار لهم عمير بن سعد ، وعندما وصل إليهم وقف خطيباً يقول :

أيها الناس ، إن الإسلام حصنٌ منيعٌ وبابٌ وثيقٌ ، وحصن الإسلام العدل وبابه الحق . فإذا دُكَّ الحصن وحُطِّم الباب استُيْحَ حِمَى هذا الدين ، وإن الإسلام ما يزال منيعاً ما اشتد السلطان ، وليست شدة السلطان ضرباً بالسوط ولا قتلاً بالسيف ولكن قضاءً بالعدل وأخذاً بالحق . . .

وتمضي سنة كاملة على ذلك الأمير الفقير ، وخلالها لم تصل الفاروق منه رسالة ، فأرسل إليه أن اثني مدينة رسول الله ﷺ .

وعندما وصل إليه ، نظر الفاروق إلى عمير فأدهشه حاله ورثة ثيابه وشحوب وجهه فقال : ما بك يا عمير ، وما معك من الدنيا ؟!

قال : يا أمير المؤمنين ، أنا صحيحٌ معافى ، ومعى جراحي وقصعتي وقربتي ، والدنيا كلها تبعٌ لمتاعي هذا ، وفضلةٌ لا حاجة لي ولا لأحدٍ غيري فيها!!

قال عمر : وهل جئت ماشياً ؟!

قال عمير : نعم يا أمير المؤمنين .

فقال : أما أعطيت من الإمارة دابةً تركبها ؟ فقال : هم لم يعطوني ، وأنا لم أطلب منهم!! فقال : وأين ما أتيت به لبيت المال ؟ فقال : لم آت بشيء ، لأنني عندما وصلت حمص جمعت صلحاء أهلها ، ووليتهم فيها ، فأنفقوا ذلك بالعدل .

نعم يا عمير بن سعد ، لقد أصبحت نموذجاً يُقتدى ، فالفقر عندك ليس

قلّة المال ، بل الفقر أن يلقي الإنسان الله وليس معه حسنات .

نعم يا عمير بن سعد ، لقد ودّعت الدنيا وأنت واثق الخُطى ، وكاهلك ليس عليه شيء من حطام الدنيا ، ولا يوجد عليه أثقال ولا أعباء .

نعم يا عمير بن سعد ، لقد نجحت في امتحان الدنيا ، حيث لم تستطع أن تغريك بمتعها وزخرفها وزينتها ، ورجحت كفة ميزانك بشهادة الفاروق عمر رضي الله عنه : ودّدت أن لي رجالاً مثل عمير بن سعدٍ أستعين بهم في أعمال المسلمين ، إن عميراً نسيجاً وحده!!^(١) .

● الصحابي الجليل عمار بن ياسر :

كان من السابقين إلى الإسلام هو وأخوه عبد الله وأبوه وأمه ، ولقد عذبوا في الله على إسلامهم عذاباً شديداً فكانت أمه أول شهيدة في الإسلام ، وقد مرّ رسول الله ﷺ وهم يعذبون فقال لهم : «صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة» .

ويعيش عمار الحياة عيشة الفقراء : لا مال ولا متاع ولا زينة ، إنما الكفاف فقط!! فهل أثر ذلك في كفة ميزانه ؟!

هل منعه الفقر أن يكون من حملة أوسمة كان المصطفى يوزّعها بين الحين والآخر ؟ يحدثنا التاريخ أنه بعد الهجرة ، اشترك المسلمون في بناء المسجد النبوي ، واندفع عمار يحمل لبنتين لبنتين ، بينما الآخرون يحمل الواحد منهم لبنة لبنة ، فما كان من الحبيب محمد صلوات الله عليه إلا أن قال لعمار : «يا أبا اليقظان ، لا تشقق على نفسك» .

فقال عمار : يا رسول الله ، إني أحب أن أعمل في هذا المسجد .

(١) للتوسع راجع: أسد الغابة: ٢٩٣/١ ، وسير أعلام النبلاء: ٨٦/١ والأعلام: ٣٦٤/٥ ، والإصابة (٦٠٣٦) .

فقال الرسول : «أنت من أهل الجنة ، وتقتلك الفئة الباغية» .

... وبعد فترة جاء عمار إلى بيت رسول الله واستأذنه بالدخول ، فقال رسول الله : «أئذنوا له ، مرحباً بالطيب المطيب» .

لكنه يارسول الله فقير معدم بائس!!

ذات مرة جلس عمار بين الأصحاب فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال : «إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم فاقتدوا بالذين من بعدي - أبي بكر وعمر - واهتدوا بهدي عمار ، وما حدثكم به ابن مسعود فصّدّقوه» .

ويتنقل الرسول صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى ، فكيف كان حال عمار من بعده ؟

لقد ثبت ثبات الأبطال في معركة اليمامة ، دونما اهتمام بالدنيا وحطامها ، ناظراً إلى رضى الله تعالى ، منادياً بالمسلمين : يا معشر المسلمين ، أمن الجنة تفرّون ؟ إلّى إلّى ، أنا عمار بن ياسر!

أيها المسلمون . الرواح إلى الجنة ، والله إن الجنة تحت ظلال البيض وينطلق عمار إلى الله ، يبتغي الشهادة في سبيله ، لكن لم تحن بعد يا عمار فيصيح : اللهم إنك تعلم أنني لو أعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته ، اللهم إنك تعلم أنني لو أعلم أن رضاك أن أضع ظبّة سيفي هذا في صدري ، ثم أنحني عليه حتى يخرج من ظهري لفعلت ، اللهم إني أعلم مما علمتني أنني لا أعمل عملاً صالحاً هذا اليوم هو أرضى من جهاد هؤلاء الفاسقين ولو أعلم أن عملاً من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته .

ويصل التاريخ إلى (صفين) ليحدثنا بما قاله عمار للإمام علي :

يا أمير المؤمنين ، إن استطعت ألا تُقيم يوماً واحداً فافعل ، اشخص بنا قبل استعار نار الفجرة ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة ، وادعهم

إلى رشدهم فإن قبلوا سعدوا ، وإن أبوا إلا حربنا ، فوالله إن سفك دمائهم ، والجد في جهادهم لقربة عند الله وهو كرامة منه .

لكن التاريخ يعجب من عمار حينها وقد بلغ من العمر (٩٣) عاماً!!

وينال عمار الشهادة وكان آخر كلماته : الجنة تحت الأسنة ، اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه!!

نعم يا عمار بن ياسر ، لقد عشت الحياة فقير الحال - ظاهراً - لكنك كنت من أغنى الأغنياء في ميزان الشريعة ، غنياً في العقيدة ، في الشجاعة والإباء ، غنياً في حبك لله ورسوله وللمؤمنين .

نعم يا عمار ، لقد فزت في امتحان الدنيا ، فكنت شهيداً اشتاقت إليك الجنة ، فهنيئاً لك ذلك^(١) .

● صهيب الرومي - رضي الله عنه - :

كان عبداً لسيد من سادات مكة هو عبد الله بن جدعان ، عمل في التجارة إلى أن أصبح غنياً . . وعندها بزغت شمس الإسلام ، فاتجه إلى رسول الله ﷺ وسمع منه وأعلن إسلامه .

كان هذا تبريراً للمشركين بأن يسلطوا عليه ألواناً من الأذى ، حتى أذن رسول الله للناس بالهجرة إلى يثرب . . وتحين صهيب الفرصة لذلك حاملاً معه من الذهب الكثير الكثير ، لكن المشركين كانوا يراقبونه ، فلحقوا به قائلين :

جئتنا صعلوكاً ، فلما كثر مالك هممت بالرحيل ؟! فقال لهم : رأيتم إن تركت لكم مالي ، أتخلّون سبيلي ؟ قالوا : نعم ، فأعطاهم ما معه ودلّهم على بقية أمواله!! ولما وصل إلى المدينة ورآه رسول الله ﷺ وليس

(١) للتوسع راجع الطبري: ٢١/٦ ، وسير أعلام النبلاء: ١٢/٢ ، والأعلام: ١٩١/٥ ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣/١٣٥ .

معه شيء قال له - وبوجه طلق - : «ريح البيع يا أبا يحيى ، ربح البيع» .

وأنزل الله تعالى قوله :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة : ٢٠٧] .

نعم يا صهيب ، ربح بيعك ، ونعم المقايضة هي ، لقد أعطيتهم الدنيا وما فيها وربحت الجنة ورضى الله ، فكنت بحق الفائز في ذلك ..

نعم يا صهيب ، لم يؤثر المال عليك ، ولم تستطع قلته أن تؤثر على كفة الميزان بل على العكس ، عندما وصلت المدينة وأنت لا مال لك ولا متاع عندها نلت الوسام من القائد العظيم محمد ﷺ : ربح البيع يا أبا يحيى .

هذا نموذج من النماذج التي يقدمها الإسلام وهو يعلن أن الفقر مشكلة لكن الفقير العفيف المسلم الراضي بما قسمه الله له ، ليس مشكلة وليس عاراً ، إنما هو فخر ووسام شرف ، إنه فقر - في رضى الله - يساوي الغنى كله ، بل يعلو ويسمو عليه^(١) .

● عتبة بن أبان - رضى الله عنه - :

صحابي جليل زاهد في حطام الدنيا ، لا يعتني كثيراً بتحلية ظاهره أمام الناس ، لا يأكل إلا القليل ، وعندما سأله عن ذلك قال : إني أخاف أن يُقال لي يوم القيامة : ﴿أَذْهَبْتُمْ طِبْنَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

(١) للتوسع راجع : طبقات ابن سعد : ٢٢٦/٣ ، وصفة الصفوة : ١٦٩/١ ، والاستيعاب : ١٧٤/٢ ، البداية والنهاية : ٣١٩/٧ .

ولم يهتم بثناء الناس له أو عدمه ، بل كان يرى أن ابتغاء المتزلة عند الناس سقوط للمتزلة عند الله!!

وكان يقول : لن تنصر الله في معركة حتى تنصره على نفسك بتغليب أمره على هواك ، فإن كنت فارس هذه المعركة فأنت فارس المعركة الأخرى بإذن الله .

... نعم لقد عاش عتبة الحياة وهو ينتقل من فقر إلى فقر ، صابراً ، ناظراً إليها نظرة إنسان يكره شيئاً كراهة مغلظة ، حتى أنه كان لا يجد فرقاً بين الموت والحياة لذلك كان يردد في دعائه :

«اللهم احشر عتبة بين حواصل الطير وبطن السباع!!» .

ذلك لكي لا يُعرف له قبر فيصبح مع تقادم الأيام مكان يزار ، لتجمع الناس حوله فيشك أن يكون ذلك من الشوائب التي تُخالط الجهاد!!

أي دقة في الوزن عندك يا عتبة ؟ أي إخلاص كنت تحمل في صدرك ؟ أي استحقاق للدنيا وأي استخفاف بها كان لديك ؟

نعم يا عتبة ، لقد كنت فقيراً زاهداً ، لكنك كنت عملاقاً استطعت أن تجمع بين إيجابية المصلح المجاهد ، وبين رهبانية العابد الزاهد المخلص .

نعم يا عتبة ، لقد صدقت الله في دعائك فصدقك الله في نيل الشهادة في سبيله . . يحدثنا التاريخ أن عتبة هذا انطلق في إحدى المعارك - وكان عمره (٣٠) سنة - يقاتل ويقاقل ، حتى سقط شهيداً وهو يردد :

«الله أكبر ، فزت ورب الكعبة» .

● أبو ذر الغفاري - رضي الله عنه - :

كانت قبيلة أبي ذر كلها فقيرة الحال ، تعيش على ما تأخذه من التجار الذين يمرّون في واديها (ودّان) ، وعندما سمع أبو ذر ببعثة رسول الله ﷺ

انطلق إليه وأعلن إسلامه واستأذنه أن يعلن ذلك على مسامع صناديد قريش ، وبالفعل خرج إلى البيت الحرام والقوم جالسون فنأدى بأعلى صوته يا معشر قريش ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وقاموا إليه ، وراحوا يضربونه ضرباً مبرحاً حتى كاد أن يموت حتى تدخل العباس بن عبد المطلب وأنقذه ، وانطلق إلى قومه داعياً إلى الحق ، فأسلموا جميعاً ونالوا الوسام الرفيع من سيدنا رسول الله :

«غفار غفر الله لها ، وأسلم سألهم الله»^(١) .

ومع كل فقره ، استأذن رسول الله أن يقوم على خدمته ، فقال الشرف في ذلك ، وفي ذات يوم قال النبي ﷺ لأصحابه :

«ما أقلت الغبراء - الأرض - ولا أظلت الخضراء - السماء - من رجل أصدق من أبي ذر» ، لكن يا رسول الله إنه فقير ليس لديه العقارات ولا المال ولا الصناديق المليئة بالذهب !!

هذا هو الميزان الإسلامي : لا يرصد الأحداث حسب الأهواء ، ولا ينظر إلى الإنسان على حسب ما يجمع ، بل ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] .

اسمع إليه وقد دخل عليه أحد الصحابة فلم يجد عنده متاعاً فقال : يا أبا ذر . أين متاعكم ؟ فقال : لنا بيتٌ هناك - في الآخرة - نرسل إليه صالح أعمالنا ، وأحسن حسناتنا!! فقال الرجل : ولكن لا بد لك من متاع ما دمت في دار الدنيا . فأجابه : ولكن صاحب المنزل لا يتركنا فيه!!

فرضي الله عنك ورحمك وغفر لك يا أبا ذر .

(١) رواه الإمام مسلم .

● الزهراء فاطمة... وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - :

من عادات الناس أن الزعيم وذا المنصب وذا السلطان حين يريد تزويج ابنته يختار لها رجلاً ذا منصب ، أو غنياً .

أما سيدنا رسول الله ﷺ فكانت له فاطمة - رضي الله عنها - والتي كان يحبها حباً جماً إلى درجة أنه قال لها ذات مرة :

«ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة ، أو سيدة نساء المؤمنين؟»^(١) .

فلمن زوجها رسول الله ﷺ ؟

لقد اختار لها الإنسان الفقير - في الأموال - الذي لا يملك الأثاث الفاخر ، ولا غرف النوم الأجنبية!! ولا السيارات ولا الشقق المطلة على البحار!! بل يروي لنا العريس - علي - نفسه فيقول : أهديت ابنة رسول الله إليّ فما كان فراشنا ليلة أهديت إلا مسك كبش!!

وفي رواية الإمام أحمد عن أبي يزيد المدني قوله : لما أهديت فاطمة إلى عليّ - رضي الله عنهما - لم تجد عنده إلا رملاً مبسوطاً ووسادة وجرة وكوزاً!!

ويأتي النبي القائد - صلوات الله عليه - لينظر إلى هذا البيت الذي احتضن ابنته المحبّة ، وعريستها ليعطي الخط العريض ، وهو أحد موازين الإسلام والتي افتقدها المجتمع اليوم ، فتحوّلت الحياة إلى رسميات وعادات وأعراف!!

فيقول : «بارك الله لقومٍ جُلّ آيتهم الخرف» .

(١) متفق عليه .

فهل كان للفقر تأثير في حياتهما الزوجية ؟ هل كان الفقر محطماً
للسعادة ؟!

أبدأ بالقضية هي كما قال الشاعر :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق..
إنه الرضا الذي يفعل الأعاجيب.. إنه إكسير الحياة الذي يضيء على
الحياة السعادة فينفخ الروح في الجوامد فتتحرك^(١).

● أبو الدرداء - رضي الله عنه - :

يحدثنا أبو الدرداء عن نفسه فيقول : لقد كنت تاجراً قبل عهدي
برسول الله ﷺ ، فلما أسلمت أردتُ أن أجمع بين التجارة والعبادة ، فلم
يستقم لي ما أردت ، فتركت التجارة وأقبلت على العبادة .

والذي نفس أبي الدرداء بيده ، ما أحبُّ أن يكون لي اليوم حانوتٌ على
باب المسجد فلا تفوتني صلاةٌ مع الجماعة ، ثم أبيعُ وأشتري فأريح كل
يوم ثلاثمائة دينارٍ!! لكن هل الإسلام يحرم التجارة؟! ؟

يتابع أبو الدرداء حديثه : إني لا أقول إن الله عز وجل حرّم البيع ،
ولكني أحب أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وفي زمن الفاروق عمر - رضي الله عنه - أراد أن يوليّه إمارة الشام
فرفض قائلاً :

إن أردت ، أذهبُ إليهم لأعلمهم كتاب الله وسنة رسوله ، ولما وصل
دمشق وجد الناس قد أولعوا بالترف فدعاهم إلى المسجد وقال فيهم :

ما لي أرى علماءكم يذهبون - يموتون - وجهالكم لا يتعلمون؟!
وأراكم قد أقبلتم على ما تكفل لكم به الله عز وجل ، وتركتم ما أمرتم

(١) للتوسع راجع كتابنا واحة الصالحين : ٣٨-٣٩.

به ؟! ما لي أراكم تجمعون ما لا تأكلون؟! وتبنون ما لا تسكنون ،
وتؤمّلون ما لا تبّلغون!!

لقد جمعت الأقوام التي قبلكم وأملت ، فما هو إلا قليل حتى أصبح
جمعهم بوراً ، وأملهم غروراً ، وبيوتهم قبوراً!!

هذه عاد - يا أهل دمشق - قد ملأت الأرض مالاً وولداً ، فمن يشتري
منيّ تركة عادِ اليوم بدرهمين ؟!

ويطلب معاوية ابنة أبي الدرداء لابنه يزيد ، فيرفض أبو الدرداء!!^(١) .

إن الميزان هنا لم يرجح فيه كفة الغنى ولا الزعامة ولا... إنما
رجحت قضية الأخلاق والسلوك والدين فزوجها لواحد من عامة
المسلمين!!

● أسيد بن الحضير - رضي الله عنه - :

في العام العشرين من الهجرة النبوية وفي خلافة الفاروق عمر
- رضي الله عنه - ودّع أسيد بن الحضير الدنيا ، لينتقل إلى هناك حيث
رسول الله والأصحاب ، فوجد أن عليه ديناً مقداره أربعة آلاف درهم ، فهل
كانت هذه الحياة بشظفها وقلة ما أعطته حاجزاً أمامه ليرتقي إلى العلياء ؟

يحدثنا البخاري ومسلم أن أسيداً هذا كان بالإضافة إلى شجاعته في
الغزو كان كثيراً ما يُرى عاكفاً يتلو كتاب الله ، وكان صوته رخيماً عذباً
خاصة في جوف الليل ، وذات يوم راح يقرأ من أول سورة البقرة ، والتفت
فجأة إلى السماء فرأى غمامة كالمظلة لم تر العين أروع ولا أبهى منها قط
وقد علّق بها أمثال المصابيح ، ولما كان الصباح توجه إلى رسول الله ﷺ
وأخبره بما رأى ، فقال النبي : «تلك الملائكة كانت تستمع لك يا أسيد ،

(١) للتوسع يراجع تاريخ دولة الإسلام للذهبي: ١٠٧/٢ ، حلية الأولياء: ٣٠٨/١ .

ولو أنك مضيت في قراءتك لرأها الناس ولم تستتر منهم» .

وكان شديد الحب للرسول ﷺ ، وكانت أمنيته أن يمسّ جسده جسد رسول الله ، وتشاء العناية الإلهية أن يتحقق له ذلك :

ف ذات يوم كان أسيد يحدث القوم ببعض الطرائف ، فطعنه رسول الله ﷺ في خاصرته بيده - دليل على استحسانه له - فقال أسيد : أوجعتني يا رسول الله .

فقال نبي الرحمة ﷺ : اقتصّ مني يا أسيد

فقال أسيد : إن عليك قميصاً ولم يكن عليّ قميص حين ضربتني!

رفع رسول الله قميصه عن جسده ، فاحتضنه أسيد وجعل يقبّل ما بين إبطه وخاصرته وهو يقول : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، إنها لبغية كنت أتمناها منذ عرفتك ، وقد بلغتها الآن!!^(١) .

أي وسام يفوق ذلك... الملائكة تسمع صوته في قراءة القرآن ، ويقبّل جسد الحبيب الأعظم وهو الذي عندما مات كان عليه الديون!!

● سهل بن حنيف - رضوان الله عليه - :

حينما نريد إثبات فكرة أن الفقر لم ولن يكون عائقاً لأصحابه عن مراتب السيادة والقيادة نجد خير دليل على ذلك الذي خاضوا مع رسول الله ﷺ معركة بدر ، لقد كانوا جوعاً فقراء لذلك كان المصطفى يقول في دعائه :

«اللهم إنهم جوع فأطعمهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم ، اللهم إنهم حفاة فاحملهم!!» .

(١) للتوسع يراجع جامع الأصول لابن الأثير: ٣٧٨/٩ ، الأعلام: ٣٣٠/١ .

وكان من هؤلاء الصحب الكرام سهيل بن حنيف - رضي الله عنهم جميعاً - .

وتأتي معركة أحد ، ليقف سهيل أمام النبي ﷺ مدافعاً رامياً للنبال حتى قال الرسول : «أنبلوا سهيلاً ، فإنه سهل» .

ويعود الرسول صلوات الله عليه من أحد ، ويناول سيفه لفاطمة كي تغسل ما عليه من الدم ، وكان معه عليّ ، وبدأ الحديث عن القتال والمعركة هنا أعلن الرسول ﷺ شيئاً عظيماً : إنه أراد أن يذكر علياً أن من دافع عنه لن ينساه طيلة الأيام فقال صلوات الله عليه :

«لئن كنت أجدت الضرب بسيفك لقد أجاده سهل بن حنيف وأبو دجانة وعاصم بن ثابت والحارث بن الصمة..» .

وتصل المسيرة إلى علي ليصبح خليفة بعد عثمان - رضي الله عنهم - ليقف سهل معه وقفة الأبطال الشجعان ، لم يمنعه فقره أن يكون من السابقين إلى الخيرات .. لم يمنعه فقره أن يصل إلى أعلى الدرجات .

وتنتهي حياة سهل النبوية ، ويقف عليّ - كرم الله وجهه - ليصلي عليه ، فكبر عليه ست تكبيرات - علماً أن صلاة الجنازة فيها أربع تكبيرات فقط - ولما سأله قال : لقد شهد سهل غزوة بدر ، والنبي قال في أهل بدر : «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فأني قد غفرت لكم»^(١) .

● أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي - رضي الله عنه - :

يروي عن نفسه قائلاً : إنه كان يشتد بي الجوع حتى إني كنت أسأل

(١) للتوسع يراجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢٣-٥ .

الرجل من أصحاب رسول الله عن الآية من القرآن - وأنا أعلمها - كي يصحبني معه إلى بيته فيطعمني!!

لكن هل منعه ذلك من الصعود إلى الدرجات الرفيعة!؟ ها هو يمرّ في يوم من الأيام بسوق المدينة فيرى انشغال الناس بحطام الدنيا ، فيصبح بهم :

ما أعجزكم يا أهل المدينة ، أنتم هنا بينما ميراث رسول الله ﷺ يقسم في المسجد ، فانطلق القوم مسرعين فلم يجدوا فيه إلا القرآن ومجلس العلم ، وبعد أن عادوا قالوا له : يا أبا هريرة لم نر ما قلته لنا ، فقال : أوما رأيتم في المسجد أحداً؟!

قالوا : بلى ، رأينا قوماً يصلّون ، وقوماً يقرؤون القرآن ، وقوماً يتذكرون في الحلال والحرام ، فقال : ويحكم ، ذلك ميراث محمد ﷺ .

ويدور الزمن دورته ليصبح أبو هريرة والياً على المدينة المنورة زمن معاوية بن أبي سفيان فهل تغيّرت نفسه وتبدّل طبعه ؟

ها هو يمرّ ذات يوم بأحد طرق المدينة ، وكان يحمل الحطب على ظهره لأهل بيته ، فمرّ بأحد الصحابة ، فقال له : أوسع الطريق للأمير ، وللحزمة التي على ظهره!!

وتأتي ابنته وتقول له : يا أبت إن البنات يعيرنني ، ويقلن : لم لا يحلّيك أبوك - وهو والي - بالذهب!؟

فقال لها : يا بنة قلبي لهم : إن أبي يخشى عليّ حر لهيب جهنم!! ويأتيه الموت فيبكي ويقول : أما إنني لا أبكي على دنياكم هذه ، ولكني أبكي لبعد السفر وقلة الزاد ، لقد وقفت في نهاية طريق يفضي بي إلى الجنة أو النار ، ولا أدري في أيهما أكون!!

فهل منعه الفقر أن يكون من كبار المحدثين!؟ لقد حفظ للمسلمين

ما يزيد عن (٣٥٠٠) حديثاً من أحاديث المصطفى صلوات الله عليه ،
فرضي الله عن أبي هريرة .

● خباب بن الارت - رضي الله عنه - :

كان من العبيد الفقراء الذين يباعون في الأسواق كما تباع الأمتعة ، لكنه
لما علم بظهور دعوة رسول الله ﷺ توجه إليه وأصبح سادس من أسلم .
وكان إعلانه الإسلام سبباً لإيذائه الشديد من قبيل أسياده المشركين ،
لكن ذلك أدى إلى ازدياد صلابته وعقيدته .

وتمرّ الليالي مسرعةً ليصبح من الأغنياء ، فهل تغير فيه شيء ؟ هل قسا
قلبه وساءت طباعه وتكبرت نفسه ؟!

أبدأ ، بل حدث التاريخ عن تصرفه في المال حديثاً عجيباً فقال :

لقد وضع دراهمه ودنانيره في موضع من بيته يعرفه ذوو الحاجات من
الفقراء والمساكين ، ولم يشدد عليه رباطاً - ولم يخبئه - ولم يُحكم عليه
قفلًا ، فكانوا يأتون داره ، ويأخذون منه ما يشاؤون دون سؤالٍ أو
استئذان!!

إنه الميزان الفريد الذي تحدثنا عنه فلا الفقر يؤدي إلى السخط والحسد
والحقد ، ولا الغنى يؤدي إلى الطغيان والعنجهية والكبر .

إنما إذا أتى المال استُخدم في الإنفاق والحلال والجهاد، وإن ذهب
وافترق الحال فليس هناك إلا الصبر والرضى بما قسم الله .

وتحضر خباباً الوفاة فيبكي ويقول لمن حوله : إن في هذا المكان
ثمانين ألف درهم ، والله ما شددت عليها رباطاً قط ، ولا منعت منها سائلاً
قط .

وإنما أبكي لأن أصحابي مضوا ولم ينالوا من أجورهم في هذه الدنيا

شيئاً ، وإنني بقيت فنت من هذا المال ما أخاف أن يكون ثواباً لتلك الأعمال!!

ويشاء القدر أن يكون علي بن أبي طالب هو الذي يعلق لخباب نيشان - وسام - الفخر والاعتزاز ، فيقف علي قبره ويقول :
رحم الله خباباً ، فلقد أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ،
ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً .

● ربيعة بن كعب - رضي الله عنه - :

خدم رسول الله ﷺ فترة طويلة ، لا يغادره في النهار ، ويجلس على باب بيته في الليل فربما أراد شيئاً ما ، وكان من عادة المصطفى أن يكافئ بالأحسن ، فقال له ذات يوم : «يا ربيعة سلني شيئاً أعطه لك» .

وماذا يكون حلم الفقير ؟ الذي لا زوجة له ولا مسكن ولا مال ؟!

وخاصة أنه يعتقد جازماً أن دعوة رسول الله ﷺ محققة لا محالة .

لكن الإسلام حين ربيّ الأصحاب ، سمى بهم إلى العلياء ، فناطحوا السحاب وارتفعوا على حطام الدنيا ، ونسوا أنفسهم أمام وعد الله بالجنان ...

فقال ربيعة : يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة .

فقال النبي ﷺ : «من أوصاك بذلك» .

قال : ما أوصاني به أحد ، لقد نظرت إلى الدنيا الفانية ، فأردت الباقي وفضلته على الفاني .

فقال : «أو غير ذلك يا ربيعة ؟» قلت : هو ذاك

فقال : إذن أعني على نفسك بكثرة السجود» .

فقال وسام مرافقة الحبيب محمد ﷺ ولم يمنعه فقره من ذلك .

● ذو البجادين - رضي الله عنه - :

عاش فقيراً وكان من أهل الصُّفَّة ، لكن أحلامه كانت تسابق الجوزاء ،
ففي الطريق إلى غزوة تبوك ، اقترب ذو البجادين من رسول الله ﷺ وقال
له : ادع الله لي بالشهادة!! نسي الفقر ، ونسي شظف العيش ونسي
الدنيا.. وراح يبحث عن وسام الشهادة ، وكان ذلك.. بل لقد قلده
رسول الله ثلاثة أوسمة :

١- قال عنه : «ارفقوا بأخيكم رفق الله بكم ، فإنه كان يحب الله
ورسوله..» .

٢- قال عنه : «رحمك الله ، إن كنت لأوياً تلاء للقرآن» .

٣- وقال عنه : «اللهم إني قد أمسيت عليه راضياً فارض عنه» .

فهنيئاً لك يا عبد الله بن عمرو المزني ورضي عنك وأرضاك .

● وفي الجعبة التاريخية أشخاص وقصص وأحداث يطول ذكرها ،
لكن نريد أن يتبين كل إنسان أن الفقر لم يكن في يومٍ من الأيام عائقاً أمام
ارتقاء الإنسان ووصوله إلى أعلى المراتب : وقد تزوج رسول الله أم حبيبة
وكانت من الفقراء (الإصابة : ٤٤١/٤ ، وأعلام النساء لكحالة :
٤٦٣/١) .

وكان سيدنا جعفر - رضي الله عنه - يحنو على الفقراء ويتعهدهم ويطلب
الدعاء منهم : (طبقات ابن سعد : ٢٢/٤ ، تهذيب التهذيب : ٩٨/٢ ،
الكامل لابن الأثير : ٩٦/٢) وفي حياة الفاروق ووفات ووفات أكتفي
بالإشارة إلى حادثة فيها العبر : حين أرسل إليه قائد جيشه سلمة الأشعجي
بحلي من الذهب والفضة : (الإصابة ٧/٢ ، وحياة الصحابة : ٣٤١/١ ،
وأسد الغابة : ٤٣٢/٢) .

لكن هل كان ذلك في الصحابة فقط ؟!

أبداءً ففي حياة التابعين صورٌ ولمحاتٌ تجعل التاريخ يقف بإكبارٍ وإعجابٍ أمام هؤلاء العمالقة الأبطال ، الذين ارتفعوا فوق الدنيا وزخرفها ، فنظروا إليها نظرة دونية ، بل طلقوها طلاقاً لا رجعة بعدها ، وسموا وارتفعوا إلى عنان السماء ، مؤثرين ما عند الله على ما في الدنيا ، لا يهتمهم أتت الدنيا عليهم أو فارقتهم فكلا الأمرين سواء .

وكان من هؤلاء إبراهيم بن الأدهم الذي كان من أسرة فيها النعيم الواسع والجاه العريض ، لكن لما أنار الله قلبه وهداه ، انطلق زاهداً ورعاً عاملاً بيديه ، آكلاً لقمته بالحلال فاشتغل بالزراعة والحصاد .

وكان من هؤلاء أويس القرني الذي قال عنه التاريخ : أويس سيد العباد ، وعلم الأصفياء من الزهاد .

هؤلاء نماذج من التاريخ ، امتازوا بقلّة المال والمتاع ، لكن كان لهم شأن عظيم وكبير ، مثلوا لنا الكلام النظري ، وترجموه إلى تطبيق عملي فكانوا أشخاصاً يسيرون على الأرض لكن أرواحهم ترفرف في ظلال الجنة .

* * *

الفصل الثاني

أغنياء من التاريخ!!

في كتاب الله تعالى نماذج عن أغنياء اتبعوا الخطوط التي رسمها لهم الله فكانوا من المجاهدين والمنفقين الذين يحبهم الله... وفيه نماذج عن أغنياء طغوا وبغوا فكانت نتيجتهم الحتمية الدمار ، العذاب الأخروي .

إذن المال وسيلة إن استخدم في خدمة الناس ، وإعانة الفقراء والمساكين ، كان ذلك طريق إلى رضى الله والفوز بالجنان ، وإن أُستخدم لخدمة الشهوات الحيوانية كان طريقاً إلى سخط الله وشراء جهنم وبئس المصير .

ولنأخذ نماذج من حياة الصحابة ، ونماذج مما ذكره القرآن الكريم ، ليكون ذلك تجسيداً عملياً وأنموذجاً يترجم لنا النظريات .

● العالم بلعام بن باعورا :

عالم كبير من علماء بني إسرائيل ، كان من أتباع سيدنا موسى - عليه السلام - وفي كل يوم يذهب للنصح والإرشاد ، وذات يوم سأله : كم يعطيك موسى - عليه السلام - لقاء ما تبذل من جهد في تبليغ الرسالة ، قال : إنما أبتغي الأجر من رب موسى .

وعرضوا عليه الأموال الكثيرة ، هنا انزلق العالم وباع دينه بديناه ، فكان أنموذجاً يتلوه الناس في القرآن الكريم إلى يوم الدين ، وكل عالم ينبطح أمام الأعتاب من أجل المال فلا بد أن تكون النتيجة نفس نتيجة بلعام زعيم

السوء ، وأولهم ، لنستمع إلى الله تعالى وهو يحدثنا عن هذا المشهد
الآخاذ :

﴿ وَأَقْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنْسَلَخَ مِنْهَا فَٱتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
ٱلْفَٰرِيقِ ۝١٧٩ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ بِآيَاتِنَا... ﴾ [الأعراف : ١٧٥-١٧٦] .

ويأتي تعميم ذلك بعد أن خصص ما فعله بلعام ، ليقول الله تعالى وفي
السورة نفسها ، وليكون ذلك القول من خطوط الإسلام العريضة الثابتة :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَٰعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ
لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ ٱلَّذِى أَخَذُواْ ٱلَّذِى أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِثْقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا
ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف :
١٦٩] .

وهذا تفسير رسول الله ﷺ لذلك إذ يقول : «ما ذنبان جائعان أرسلنا في
غنم ، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»^(١) .

● الغني قارون :

أورد بيان الله تعالى قصة قارون تفصيلاً في عدة مواضع في القرآن
الكريم من ذلك في سورة القصص : /٧٦-٨٣/ وفي سورة غافر /٢٤/
وفي سورة العنكبوت : /٣٩/ وقد أفاض المفسرون والعلماء في الحديث
عن هذه القصة لما فيها من العبر والمواعظ^(٢) .

وسنأخذ مشهداً واحداً من كتاب الله تعالى دون تعليق أو شرح ،
يقول الله تعالى في سورة القصص :

(١) رواه أحمد والترمذي .

(٢) للتوسع في ذلك يراجع البداية والنهاية لابن كثير : ٢٨٨/١ .

﴿ إِنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَتْ مِنْ قَوْرِ مُوسَى فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ وَعَائِنَهُ مِنَ الْكُتُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُورُ بِالْمُضَبَكَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُمُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّغْنَا لَنَا مِنْ مِثْلِ مَا آتَاكَ قُلُوبُؤُنَا إِنَّهُمْ لَكَاظِمُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْصَّادِقُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فَتْنَةٍ يَصُورُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ أَلْمَنَةِ الَّذِينَ أَلْمَنُوا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِسُطِّ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨١﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٢﴾ [القصص : ٧٦-٨٣] .

فماذا استفدت من المال الكثير يا قارون ؟!

● أهل ضروان !!

ضروان هذه إحدى قرى اليمن ، كان فيها البساتين والأنهار ، ولما مات صاحبها خان الأولاد الوصية فماذا كانت النتيجة ؟!

لن نذهب إلى هنا وهناك ، إنما سنكتفي بتلاوة آيات من سورة القلم :

﴿ إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَوْا لَبِئْسَ مَا مَكْسِبِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصِيبِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أُنْزِلُوا عَلَىٰ حَرْبٍ مِنْكُمْ صَرِيمٌ ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخِفُّونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرٍِّ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْزَأَمَلْ

لَكَوَلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْنَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَٰعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ [القلم : ١٧-٣٣] .

وعلق سعيد بن جبير - رحمه الله - على ذلك بقوله : كانوا من قرية يقال لها ضروان على ستة أميال من صنعاء ، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة فكان ما يستغل منها يرد فيها ما يحتاج إليه ويدخر لعياله قوت سنته ، ويتصدق بالفاضل ، فلما مات وورثه بنوه قالوا لقد كان أبونا أحق إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا ، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية - رأس المال والربح والصدقة - فلم يبق لهم شيء .

فماذا نفع هؤلاء البخل والشح في المال على عباده ؟!

● ثعلبة بن حاطب الأنصاري :

تحدثنا كتب التفسير أن ثعلبة هذا قال للنبي ﷺ ذات يوم : ادع الله أن يرزقني مالاً ، فقال له : ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ، ثم عاود ثانية قائلاً : والذي بعثك بالحق ، لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ، فدعا النبي ﷺ ، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمي الدود ، فضاقت عليه المدينة ، ففتحني عنها ونزل وادياً من أوديتها ، وهكذا بعث إليه النبي ﷺ من يجيء الزكاة منه - لكن الطمع والبخل وطغيان المال - صور له أن الزكاة ليست إلا أخت الجزية ، وعاد الجابي إلى النبي وأخبره بذلك فقال النبي : يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة .

فأنزل الله تعالى آيات تتلى إلى أن يرث الأرض ومن عليها . ليصبح

ثعلبة وأمثاله أنموذجاً للذين يُعْطَوْنَ المال والنعم فلا يستخدمونها فيما أمر
المنعم الخالق :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِذَا آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ
الصَّالِحِينَ ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿ ٧٦ ﴾ فَأَعْقَبَهُمْ
نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا
يَكْذِبُونَ ﴿ ٧٧ ﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ
الْغَيْبُ ﴾ [التوبة : ٧٥-٧٨] .

ورفض رسول الله بعد ذلك الصدقة منه ، وكذلك أبو بكر وعمر...
حتى مات في عهد عثمان رضي الله عنهم جميعاً ، فماذا استفاد من هذا
المال الكثير ؟

● المعتر بماله ورجاله!!

وترد قصة في سورة الكهف فيها العبر الكثيرة ، ولن نشرح الكثير إنما
سنكتفي بتلاوة الآيات بتدبر لفهم القصة ، يقول تعالى :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَخَفَفْتَنَاهُمْ بَتَلْحِلٍ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ (٣٦) كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا وَلَمْ تَطْلُعْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿ ٣٧ ﴾
وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿ ٣٨ ﴾ وَدَخَلَ
جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿ ٣٩ ﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً
وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿ ٤٠ ﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ
بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿ ٤١ ﴾ لَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي
أَحَدًا ﴿ ٤٢ ﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَيْنَا أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ
مَالًا وَوَلَدًا ﴿ ٤٣ ﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوَفِّيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ
فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿ ٤٤ ﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاوُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمُ طَلَبًا ﴿ ٤٥ ﴾ وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ
فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَفْقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا بَلَّتْنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي

أَحَدًا ﴿١٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ يَصْرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿١٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿الكهف : ٣٢-٤٤﴾ .

ويأتي التعقيب على هذه القصة بقوله تعالى :

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٥-٤٦] .

إنه انقلاب خطير : حيث كان معتزاً بماله ورجاله معتمداً عليهما دون الله تعالى فانقلب ذلك إلى شرك وكانت النتيجة عكس ما كان يحسب .

● الوليد بن المغيرة :

أورد البيان الإلهي قصة الوليد بن المغيرة في موضعين من كتاب الله تعالى :

١- في سورة القلم / ١٦٨ / قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَطِيعُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مِثْلِهِ ﴿١٠﴾ هَازٍ مَشْأَمُ بَنِي سُلَيْمٍ ﴿١١﴾ مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيرٍ ﴿١٢﴾ عَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴾ [القلم : ١٦٨] .

أرأيت إلى هذه النتيجة للوليد ، الذي اغترّ بماله وأولاده . . قال الفخر الرازي في قوله تعالى ﴿ سنسفه على الخرطوم ﴾ : لما كان الوجه أكرم موضع في الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأنفة ، وقالوا في الذليل : رغم أنفه ، فعبر بالوسم على الخرطوم من غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين ، فكيف على أكرم موضع من الوجه ! ؟

٢- في سورة المدثر ١١-٣٠ / قوله تعالى :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَمْ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَيْنَ شُهُودًا ۖ وَمَهَّدْتُ
لَمْ تَهْبِيدًا ۖ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ كَلَّا ۚ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينَدًا ۖ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۖ إِنَّهُ
فَكَرَّ وَفَدَّرَ ۖ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ
وَأَشْتَكَبَرَ ۖ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۖ وَمَا
أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۖ لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرٌ ۖ لَوْ آخِذٌ لِلْبَشْرِ ۖ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۖ ﴾ [المدثر :

. [٣٠-١١]

هل أفاده المال الكثير !؟

لقد أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، فكفر بأنعم الله وبدلها كفرًا ، وقابلها
بالجحود بآيات الله والافتراء عليها ، وجعل كلام الله من قول البشر ، وكان
من نعم الله عليه المال الكثير الواسع والعز المنيع ، والمكانة المرموقة في
قومه .

لكن طغيان المال حال بينه وبين السعادة والحقيقية بهذه النعم فكان من
الخاسرين .

● الصحابي أبو طلحة الأنصاري - رضي الله عنه - :

كان أبو طلحة من طلائع أهل المدينة الذين استجابوا لله ولرسوله ،
وكان مجاهدًا بارعًا في رمي النبال ، وفوق ذلك كان مسارعًا إلى التخلي
عن المال إن أراد الله تعالى ، وقد روى البخاري في صحيحه أن أبا طلحة
كان أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل ، وكان أحب أمواله إليه (ببرحاء)
وهي أرض مثمرة كانت بقرب المسجد في المدينة ، وكان المصطفى ﷺ
يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب .

ولما نزل قول الله تعالى : ﴿ لَنْ نَسْأَلَكَ الْآخِرَةَ تَتَفَقَّأُ مَعَ الْمُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ

فَاتَكَ اللَّهُ بِرُءُوسِهِمْ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

قال أبو طلحة للرسول : يا رسول الله ، إن الله تبارك وتعالى ندبنا إلى الإنفاق ، وإن أحب أموالي إليّ (بيرحاء) وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله .

فنال الوسام التقديري من السيد الجليل رسول الله إذ قال له :

«بيع ، ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعتُ ما قلت ، وإنني أرى أن تجعلها في الأقربين»^(١) .

فقسّم البستان بين أقاربه وبين بني عمه كما أرشده رسول الله ﷺ .

هذا النموذج اختلف عن النماذج الماضية التي سُقناها من القرآن الكريم ، فهناك طغوا بالمال ونسوا المنعم الحقيقي ، فبدل أن يشكروه راحوا يعصونه بواسطة ما أعطاهم إياه من النعم ، بل سکروا بها فكانت النتيجة الخسارة .

وهنا أبو طلحة واحد من الصحابة الكرام الذين لم يهتموا بالدنيا أنت أم ذهبت ، فراح يقسم أحب أمواله إليه على الفقراء والمساكين فكانت النتيجة معاكسة للنتيجة الأولى «ربح البيع...» .

● عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - :

روى العلامة ابن كثير - رحمه الله - عن الزهري أنه قال : تصدّق عبد الرحمن بن عوف على عهد النبي ﷺ بأربعة آلاف ، ثم تصدّق بأربعين ألفاً ، ثم تصدّق بأربعين ألف دينار ، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله ، ثم حمل على خمسمائة راحلة في سبيل الله ، وكانت عامة ماله من التجارة .

وحينما حضرته الوفاة ، أوصى لكل رجل ممن بقي من أهل بدر

(١) للتوسع يراجع الإصابة : ٥٠٦/١ ، والطبقات الكبرى : ٥٠٤/٣ .

بأربعمائة دينار - وكانوا مائة - فأخذوها حتى عثمان وعلي ، وقال علي :
أذهب يا بن عوف فقد أدركت صفوها ، وسبقت زيفها .

وأوصى لكل امرأة من أمهات المؤمنين بمبلغ كثير حتى كانت عائشة - رضي الله عنها - تقول : سقاه الله من السلسيل ، وأعتق خلقاً من مماليكه ، ثم ترك بعد ذلك كله مالا جزيلا ، من ذلك ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت - تعبت - أيدي الرجال ، وترك ألف بغير ومائة فرس ، وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع .

وكان نساؤه أربعاً فصولحت إحداهن من ربع الثمن بثمانين ألفاً!!^(١) .

لكن هذا الغنى الكثير هل حال بينه وبين الوصول إلى العلياء ؟ إنه أحد الثمانية السابقين في الإسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى يوم اختيار الخليفة بعد الفاروق ، وأحد نفر الذين كانوا يفتنون في المدينة ورسول الله ﷺ حيّ بين ظهراي المسلمين .

وقد دعا الرسول له بأن يُبارك له في ماله ، وكان ذلك كائناً ، حتى قال هو عن نفسه : فأقبلت الدنيا عليّ حتى رأيتني لو رفعت حجراً لتوقّعت أن أجد تحته ذهباً أو فضة!!

فهل فُتن عبد الرحمن بهذه الزينة والمال الوفير ؟!

لقد نال وسام الشرف من الدرجة الأولى في غزوة تبوك ، فقد صلى عبد الرحمن إماماً بالمسلمين ، وما كادت تتم الركعة الأولى حتى لحق رسول الله ﷺ بالمصلين ، واقتدى بعبد الرحمن وصلى خلفه ، إنها لكرامة رفيعة المستوى لعبد الرحمن حيث اقتدى به سيد الخلق وإمام الأنبياء محمد ﷺ .

والعبرة الأشد تأثيراً ما يحدثنا به التاريخ عنه فيقول :

(١) البداية والنهاية لا بن كثير : ٧ / ١٧٠-١٧١ .

أتى عبد الرحمن ذات يوم بطعام - وهو صائم - إليه ثم قال : لقد قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ، فما وجدنا له إلا كفناً ، إن غطى رأسه بدت رجلاه ، وإن غطى رجله بدا رأسه ، ثم بسط الله لنا من الدنيا ما بسط ، وإنني لأخشى أن يكون ثوابنا قد عجل لنا ، ثم جعل يبكي وينشج حتى عاف الطعام!!

لقد نال عبد الرحمن أوسمة عالية من النبي ﷺ على الرغم من غناه وكثرة ماله ، وهذا دليل حيّ ونموذج حقيقي على أن الإسلام لا يحارب الغنى إنما يحارب الطغيان في المال ، والتكبر على عباد الله من خلال ذلك .

ذلك لأن من الصحابة - كما قال ابن تيمية في الفتاوى المصرية - أغنياء كثر كعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عباد ، وأسيد بن حضير ، بل من الأنبياء من هو غني كإبراهيم وداود وسليمان ويوسف - صلوات الله عليهم أجمعين - من تلك الأوسمة قول المصطفى في حقه : « ما قبض نبي حتى يصلي خلف رجل صالح من أمته ، وإن عبد الرحمن بن عوف سيد من سادات المسلمين » .

من ذلك أن النبي ﷺ عمّمه بيده الشريفة حين أرسله إلى دومة الجندل ودعا له : « سر باسم الله ، وإن فتح الله عليك فتزوج بنت شريفهم » .

ومن ذلك أن النبي كان جالساً ومعه بعض الأصحاب فتلا أحدهم بعض آيات القرآن فبكى الناس إلا عبد الرحمن . فظل ساكناً خاشعاً بلا بكاء ، فقال رسول الله ﷺ : « إن لم يكن عبد الرحمن قد فاضت عيناه فقد فاض قلبه »^(١) .

فرضي الله عنك أيها الثري الكريم وأرضاك .

(١) للتوسع يراجع تهذيب التهذيب : ٢٤٢/٦ ، حلية الأولياء : ٩٨/١ وصفة الصفوة : ١٣٥/١ ، والفتاوى المصرية : ٥٧٣-٥٧٤ .

● عثمان بن عفان - رضي الله عنه - :

من المبشرين بالجنة ، وزوجه رسول الله ﷺ ابنته رقية فلما ماتت وزجه بالأخرى أم كلثوم ، ورد في حقه أحاديث شريفة منها :

ما رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه بالسند المتصل إلى سهل بن سعد قال : ارتجأ أحدُ وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان ، فقال النبي : «اسكن أحد ، فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان» وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال في قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَاتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾

[الزمر : ٩] .

قال : هو عثمان بن عفان .

ومع ذلك كله كان غنياً كثير المال ، لكن كان المال بالنسبة إليه وسيلة لغاية عليا هي الوصول إلى رضا الله ورسوله والفوز بجنانه ، لذلك لما انتدب رسول الله ﷺ الناس للانفاق على تجهيز جيش العسرة - وهو على المنبر - قام عثمان فقال : عليّ مائة بغير بأحلاسها وأقتابها ، ثم حث النبي أكثر ، فقال عثمان عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، ثم نزل النبي درجة من المنبر ثم حث ، فقال عثمان : عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها .

يقول راوي الحديث : فرأيت رسول الله ﷺ يُقَلِّبُهَا فِي حَجَرِهِ وَيَقُولُ : «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ» رواه الترمذي .

كذلك في بئر رومة : وهو البئر الذي كان بالمدينة ، ولم يكن يشرب منها أحد إلا بثمان فاشتراها عثمان وجعلها لجميع المسلمين وقال الرسول - فيما يرويه البخاري - في ذلك : «من حفر بئر رومة فله الجنة» .

والحديث في ذلك يطول^(١) لكن المغزى هل أثر المال على مسيرة عثمان ، أم أنه استطاع أن يستغل المال في مرضاة الله وخدمة الناس ؟!

● طلحة بن عبيد الله - رضي الله عنه - :

لقبه الشهيد الحي!! فقد أبلى في أحد بلاءً عجبياً ، ودافع دفاعاً مريراً عن حبيينا محمد ﷺ حتى أصيب ببضع وسبعين ضربة أو طعنة برمح ، فقال الرسول فيه : «من سرّه أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض ، قد قضى نجه فليُنظر إلى طلحة بن عبيد الله» .

ولقّب بطلحة الخير وطلحة الجود!! ذلك لأنه كان تاجراً ثرياً ، وذات يوم جاءه مال من حضرموت مقدار (٧٠٠,٠٠٠) درهم ، فهل فرح وتكبر وبخل وكنز ؟ تحدثنا سيرته العطرة : أنه بات ليلته خائفاً جزعاً محزوناً .

وأحسّت زوجته أم كلثوم بنت أبي بكر بذلك فقالت مالك يا طلحة لا تنام ؟ قال : ما ظنّ رجل بربه إذا كان ينام وهذا المال في بيته ! ؟

فاقترحت عليه أن يوزع هذا المال على الفقراء والمحتاجين ، وبالفعل راح يوزعه في صُور ويقسمه على الفقراء والمهاجرين والأنصار .

فهل كان المال بيده نعمة له أم نقمة عليه ؟!

● حكيم بن حزام - رضي الله عنه - :

لما أسلم باع دار الندوة التي كانت تُعقد فيها مؤتمرات ومؤامرات الجاهليين ، وجعل ثمنها في سبيل الله قائلاً : أشتري بها بيتاً في الجنة . . .

ولما حجّ بعد إسلامه ، ساق أمامه مائة ناقة مجلّلة بالأنثواب الزاهية ثم نحرها جميعها تقرباً إلى الله ، وفي العام القادم وقف في عرفات فأعتق مائة

(١) للتوسع في ذلك يراجع كتابنا: علي بن أبي طالب مستشار أمين للخلفاء الراشدين باب: خلافة عثمان .

من عبده قائلاً : عتقاء الله عز وجل عن حكيم بن حزام... وفي العام الذي جاء بعده ساق أمامه ألف شاة ، وأراق دمها كلها في منى وأطعم لحومها فقراء المسلمين ، فهل كان المال وسيلة أم غاية عند حكيم! ؟^(١) .

● الزبير بن العوام - رضي الله عنه - :

أورد البخاري : أن الزبير كان له أربع نسوة ، فلما مات أصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف (١,٢٠٠,٠٠٠) فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا (٥٠,٢٠٠,٠٠٠) .

إذن كم كان الزبير يمتلك من الأموال ؟

أورد ابن الجوزي - رحمه الله - في صفة الصفوة : أن الزبير كان له ألف مملوك يؤدون الضريبة ، لا يدخل بيت ماله منها درهم ، يتصدق بها ويقسمها كل ليلة ثم يقوم إلى منزله ليس معه شيء منها!!

وأورد صاحب الأعلام : أن الزبير كان موسراً خلف ثروة تقدر بأربعين مليون درهم!^(٢) .

فهل أثر ذلك الغنى عليه وجعله من المتكبرين ؟

أبدأ ، لقد باع داراً له بستمائة ألف ، فقيل له : يا أبا عبد الله غُبت ، قال : كلا والله لتعلمن أنني لم أغبن هي في سبيل الله .

وعلق له النبي ﷺ وساماً من الدرجة العليا ، حيث قال له يوم الخندق :

«لكل نبي حوارى ، وحواريي الزبير» رواه البخاري ومسلم .

(١) للتوسع يراجع : الإصابة ٣٤٩/٢ ، شذرات الذهب : ٦٠/١ والملل والنحل :

٢٧/١ ، وسير أعلام النبلاء : ١٦٤/٣ .

(٢) الأعلام للزركلي : ٧٤/٣ ، وصفة الصفوة : ١٨١/١ .

● عبد الله بن المبارك - رضي الله عنه - :

قال عنه أبو نعيم في الحلية : السخي الجواد ، الممهّد للمعاد ، المتزود من الوداد ، أليف القرآن والحج والجهاد .

ورث التجارة عن أساتذته ، وكان له الأرباح الوفيرة ، وكان رأس ماله أربعمائة ألف يطوف بها البلاد ، ومع ذلك فقد جمع مع المال العلم والحكمة والزهد وحب الجهاد والحج ، وعندما سأله : ما التواضع ؟ قال : التكبر على الأغنياء .

ووقف ذات يوم بين مقبرة ومزبلة ، ففيل له : ما وقفك ؟

فقال : أنا بين كنزين من كنوز الدنيا فيهما عبرة ، هذا كنز الرجال ، وهذا كنز الأموال !! فهل منعه المال من أن يكون أحد العلماء العاملين المخلصين ؟!

● عتبة بن غزوان - رضي الله عنه - :

بعد أن فتح الأبلّة وكانت الغنائم كثيرة جداً ، خاف عتبة من إقبال الدنيا وزخارفها فبنى البصرة وبقي هو يسكن في خيمة متواضعة .

ووقف ذات يوم في مسجد الكوفة وقال في خطبته : أيها الناس إن الدنيا قد آذنت بالإنقضاء ، وأنتم منتقلون عنها إلى دارٍ لا زوال فيها ، فانتقلوا إليها بخير أعمالكم ، ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ، وما لنا طعام غير ورق الشجر حتى قرحت منه أشداقنا ، ولقد التقطت بردة - ذات يوم - فشققتها بيني وبين سعد بن أبي وقاص ، فأتزرت بنصفها ، وأتزر سعد بنصفها الآخر ، فإذا نحن اليوم لم يبق منا واحد إلا وهو أمير على مصر من الأمصار ، وإنني أعوذ بالله أن أكون عظيماً عند نفسي صغيراً عند الله .

ثم استخلف عليهم رجلاً منهم ، وودعهم ومضى إلى الفاروق

- رضي الله عنه - وطلب أن يعفيه من الولاية ، لكن الفاروق رفض ذلك ، وأعادته إلى الكوفة ، فلما خرج من مجلس عمر قال : اللهم لا تردني إليها!!
واستجيب دعاءه فعمرت ناقته وانتقل إلى الله زاهداً في الدنيا ، تاركاً الأموال والمناصب والزخارف ، طامعاً بما عند الله .

● قيس بن عباد - رضي الله عنه - :

كان من أدعيته : اللهم ارزقني حمداً ومجداً وشكراً ، فإنه لا حمد إلا بفعال ، ولا مجد إلا بمال ، اللهم وسّع عليّ ، فإن القليل لا يسعني ولا أسعه .

إنه بهذا يعطينا الميزان الحقيقي : المال هو بحسن استخدامه وتوجيهه نحو الخير والبر ، وللمال أهمية كبيرة في الحياة ، لكن المهم أن يكون من طرق سليمة - بالحلال - وأن يأخذه لا للكنز إنما للتنمية ، لا للطغیان والفساد إنما للإصلاح والخير والتعاون والتقوى لذلك تحدثنا سيرته العطرة أنه كان يوزع الطعام على الجائعين ، وكان له منادٍ ينادي على طعامه ليحضره من يشاء من الناس ، وكان إذا أقرض ورأى فيه عسرة تركه لوجه الله الكريم . . نعم «نعم المال الصالح في يد العبد الصالح» .

● أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - :

ضُربَ بها المثل بالجود ، حتى قال ابنها عبد الله بن الزبير : ما رأيت امرأتين قط أجود من خالتي عائشة وأمي أسماء ، لكن جودهما مختلف .

أما خالتي فكانت تجمع الشيء إلى الشيء ، حتى إذا اجتمع عندها ما يكفي قسمته بين ذوي الحاجات ، وأما أُمِّي فكانت لا تمسك - لا تستبقي شيئاً إلى الغد - هذا الجود كان صفة حميدة فيها لم تخش الفقر إذا أنفقت ، إنما كان ما يأتيها من مال تستخدمه في سبيل خدمة عباد الله ولحلّ مشاكلهم .

فرضي الله عن ذات النطاقين وأرضاهما.

● وفي الجعبة أمثلة وأمثلة ، يقف التاريخ مندهشاً متعجباً أمامها متسائلاً : أهؤلاء الناس كانوا بشراً أم كانوا قوماً آخرين ؟ هل كانوا صفوة من الملائكة المقربين ؟ أم هل هبطوا إلى كوكبنا من العلياء ؟ كيف استطاعوا أن لا ينخدعوا بالدنيا حين فتحت عليهم ؟ كيف لم يستطع المال أن يخدعهم ؟ كيف استطاعوا أن يحولوا فتنة المال إلى طريق موصل إلى جنان الخلد حين سخره بدل أن يسخرهم ، وحين استعبده بدل أن يستعبدهم ؟

نماذج ونماذج يحدثنا التاريخ عنها ليثبت لنا ما قلناه سابقاً أن الإسلام لا يقف من الغنى موقف العدا ، بل على العكس تماماً ، إنه يحض المسلمين على أن يكونوا أغنياء . . أن يضعوا الأموال في جيوبهم لا في قلوبهم ، أن يستخدموها في طرق الحلال لا أن تسكرهم ليغرقوا في المعاصي والحرام^(١).

* * *

(١) للتوسع أكثر يراجع: صفة الصفوة لابن الجوزي، حلية الأولياء: لأبي نعيم، وفدائيون في تاريخ الإسلام للشرباصي، وسير أعلام النبلاء للذهبي، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، والاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر، وكتابنا: علي بن أبي طالب مستشار أمين للخلفاء الراشدين، وكتابنا المسيرة التاريخية لتطبيق الزكاة...